

**اللغة - الهوية: ثنائيتا الحضور والغياب
في فلسفة دريدا التفكيكية
د. نعيم بولكعبيات
جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة 1**

الملخص :

اهتمت فلسفة دريدا بطرح القضايا الهامشية والمسكوت عنها في محاولة منه للقضاء على كل ما هو مركزي وثابت وأحادي، ومن بين أهم هذه القضايا مسألة (اللغة / الهوية)، فالعلاقة بينهما علاقة وجود وكيونة، حضور وغياب، ومن هذا المنطلق تشكلت فلسفة دريدا التي تقوم على نقد المركزية الغربية وتحقيق الانتماء الذاتي بعيدا عن الآخر المسيطر على القوة. وتتمحور فلسفة دريدا على فكرتين أساسيتين هما : التمرکز حول العقل وميتافيزيقا الحضور أو نزعة مركزية اللوجوس / الكلمة . وتعتبر فلسفة دريدا استكمالا لـ فلسفة هيدجر والتي أطلق عليها التزعة الأفلاطونية أو الميتافيزيقا أو انطولوجيا اللاهوت، ومن أهم المسلمات التي يركز عليها دريدا مسألة ارتباط اللغة بالهوية فهو القائل: «نعم أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي»، لذلك نجد فلسفته قائمة على أسئلة مشتتة، مفككة، مبشرة مثل: الهوية، اللغة، المواطنة، الأنا، الآخر... والتي أصبحت الهاجس المحوري لديه . لهذا سأتناول في هذه المداخلات ماهية الفلسفة التفكيكية وتاريخ نشأتها، ثم الولوج إلى ثنائية (اللغة / الهوية) في هذه الفلسفة والطريقة التي أثرت بها على مبادئها.

الكلمات المفتاحية

التفكيكية، دريدا، الهوية، اللغة، الظاهرانية

الملخص بالإنجليزية :

This study deals with the question of (language / identity) in the philosophy of Derrida founded on criticizing western centralism and his achievement of self- assurance for form the other, the dominant. However , his philosophy is centered around two main ideas: reason and metaphysics of presence or

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

centralism of logos . Derrida's philosophy is considered as a completion to Heidegger 's philosophy called " Platonism trend " or " mrthapha physics" or " divine anthology" .one of the basic sayings Derrida focuses on is the link between language and identity . he says: " yes, I possess only one language although it is not mine ". Thus his philosophy is based on deconstructive questions such as: language, identity, citizenship, the other,...for this, the paper tries to answer what is deconstructive philosophy , the history of its existence and the duality of language and identity in the philosophy of Derrida.

توطئة:

كثيرة هي المواضيع التي تناولت التفكيكية بالبحث والتحليل، ومن الواجب الاعتراف بصعوبة هذه المغامرة التفكيكية لثبوتية هذه الحركة، فهي ولدت بين برزخ الفلسفة والنقد، فلا هي من الفلسفة ولا هي من النقد. ومن المواضيع الحساسة التي تعرض لها دريدا بالمناقشة ثنائية (اللغة/الهوية)، ولـ اللغة أهمية بالغة في فكر دريدا حتى تحولت إلى لعبة لغوية شديدة التعقيد، ومن هذا المنطلق آثرت الخوض في هذه الثنائية، ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا، من أجل الوقوف على تاريخ نشأة التفكيكية وعلاقتها بالفلسفة، وعن العلاقة الخفية التي تربط اللغة بـ الهوية في فلسفة وفكر دريدا.

❖ أولاً: مرجعية التفكيكية

عادة ما يؤرخ لـ عمر الحركة التفكيكية بعد عام 1966، وهو تاريخ انعقاد مؤتمر خطاب العلوم الإنسانية بجامعة جون هوبنكرز، وفيه ألقى الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا Jacques Derrida" *ورقته المعنونة بـ البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية، وأعيد نشر هذه المقالة في كتابه "الكتابة والاختلاف" L'écriture et la différence (1967). غير أن هذه الورقة البحثية كانت بمثابة البيان التفكيكي وبداية

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

لـ «قطيعة معرفية واضحة مع الافتراضات النظرية التي تنطوي عليها البنيوية»¹. ورغم أن أسس التفكيكية جاءت في سياق ندوة عن البنيوية وحضرها العديد من روادها - بارث، غولدمان، ..- إلا أنها أعلنت بداية مرحلة جديدة في النقد والفكر البشري عموماً عرفت بمرحلة "ما بعد البنيوية"، فالتفكيكية جاءت لتكون بداية نهاية البنيوية. غير أن هذه النظرية أو الفلسفة إن صح التعبير لم تنشأ من فراغ وإنما هي استمرار «شديد التكثيف لما كان يشنه هيدجر من هجوم على التزعة الأفلاطونية، وجاءت صياغة دريدا لعمله في شكل مناقشات نقدية لكل من روسو وهيجل ونيتشة وسوسير وكتاب آخريين بمن فيهم هيدجر نفسه»². وفي حقيقة الأمر نجد أن التزعة التفكيكية أخذت مشاربها من ثلاثة مناهل أساسية «كانت مصدر إلهام التزعة التفكيكية؛ إذ زودها دريدا ببرنامح فلسفي، في حين هباً لها فوكو صبغة سياسية ذات طابع يساري. ومع ذلك فلا يعد أي منهما نفسه ناقداً أدبياً ولا تطلع إلى تأسيس مدرسة في النقد الأدبي. ودون المنبع الثالث، أي دون كتابات بول ديمان»³، التي ساهمت في تأسيس النظرية التفكيكية.

كثيراً ما نجد أن التزعة التفكيكية التي اهتمت بالأعمال الأدبية تميل إلى التفكير الفلسفي أكثر منه إلى التفكير النقدي الأدبي، ونستشف هذا من اعترافات دريدا نفسه الذي صرح في أكثر من مناسبة بأن منطلقه الفلسفي الأول يتمثل في الفينومينولوجيا حيث يقول: «لا شيء مما أفعله كان ممكناً بدون الاتجاه الفينومينولوجي وبدون ممارسة الرد Reduction الفينومينولوجي والترانسندنتالي، وبدون الاهتمام بمعنى الظاهرة (...). هوسرل بالنسبة لي هو من علمني تكنيكاً ومنهجاً وانضباطاً. وهو الذي لم يتخل عني قط. وحتى في اللحظات التي اعتقدت فيها أنه يلزم مساءلة بعض افتراضات هوسرل،

¹ - ريتشارد رورتي، التفكير، تر حسام نايل، ضمن موسوعة كومبريدج، ج8، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 01، 2006، ص 273.

² - المرجع نفسه، ص. 273.

³ - ريتشارد رورتي، المرجع السابق، ص 274.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

حاولت أن أقوم بذلك مع بقائي مخلصا للمنهج الفينومينولوجي¹، وبهذا الاعتراف الدريدي يتضح أن هذه التزعة ولدت من رحم فلسفي ظاهراتي هوسرلي. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا ظاهرية هوسرل؟ وماذا أخذ دريدا من هذه الفلسفة وكيف طبقها في استراتيجته؟.

الظاهراتية «اتجاه فلسفي هو الأشد تأثيراً في القرن (العشرين). تنطوي هذه التسمية على الالتزام بالتخلي في الفلسفة عن كل تفسير سريع للعالم وعلى العودة، بعد ترك كل الأحكام المسبقة، إلى تحليل كل ما يتجلى للوعي²؛ أي أن ظاهرية هوسرل تبتعد عن الأحكام الجاهزة والمسبقة وتسعى إلى تأسيس جديد للفلسفة والنظر إليها «باعتبارها علماً صارماً»³، يكون الأساس لكل «نظام خاص بالفن العملي والمعرفة العلمية، وكذلك يحتوي على خاصية القبلي والعلم واليقين الخالص»⁴، والهدف من إتباع الفلسفة الظاهراتية هو «دراسة الخبرات بقصد بلوغ ماهيتها أو عللها»⁵، لذلك كان من الضروري لـ هوسرل أن يجد منهجاً يوصله «إلى العلم اليقيني»⁶. وبغية الوصول إلى هذا الهدف عرفت الفلسفة الظاهراتية ثلاث مراحل، كانت آخرها هي التي علمت دريدا المنهج والانضباط وهي "الفينومينولوجيا الترنسندنتالية" والتي حاول فيها هوسرل جعل «الفينومينولوجيا فلسفة أولى "fist philosophy" تفترض أن تكون كل العلوم متأصلة في مجال الخبرة الخالصة. وهدف الفلسفة الأولى، وهو غاية ما وصلت إليه الفينومينولوجيا

¹ _ جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص37.

² _ بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط 02، 2007، ص195.

³ _ المرجع السابق، ص 195.

⁴ _ علي الحبيب الفريوي، مارتن هيدجر "الفن والحقيقة" أو الإنهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت، ط1، 01، 2008، ص 13.

⁵ _ يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هوسرل، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007، ص 10.

⁶ _ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص 9.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

الترنسندنتالية من النضج، أن تكون صحيحة مرة واحدة وإلى الأبد. وليس المطلوب من هذا النظام الفلسفي تأسيس العلوم الصورية والطبيعية فقط، وإنما العلوم الإنسانية أيضا وقد كان ذلك يقتضي من هسرل وضع نظرية في القيم وفلسفة التاريخ»¹.

أما الأساس الذي قامت عليه الظاهرانية فيقوم على مفهوم القصدية*، والتي تعني حصيلة تأليف وعلاقة متبادلة ثابتة بين «أفعال الوعي (مثل الإدراك، تذكر، أحب) وهي أفعال ترتبط بموضوع (فعل، التوجه، وجمعها) والموضوع كما يظهر في هذه الأفعال (الموضوع القصدية، ما هو معين، جمعها)»²، فالقصدية لا تعد «الوعي تلقيا سلبيا أو لموضوعات من العالم الخارجي جُعلت جوانية. الأخرى أن الوعي تليق لأفعال نفسية أو خيرات قصدية — إن الوعي دائما هو وعي بشيء ما : له على الدوام اتجاه يتوخاه أو هدف يسعى إليه بين الأشياء. والحق أن القصدية هي ما أتاح لنا أن نشيد موضوعا مقصودا من خضم المدركات الحسية التي نواجهها على الدوام . ما هو حاضر في وعينا ليس الشيء ذاته أو تمثيل للشيء، بل الخبرة بالفعل القصدية»³، والركن الآخر الذي يمكننا من إدراك الماهيات هي عملية الرد الفينومينولوجية التي تسمح لنا، على حد تعبير هوسرل، من بلوغ الأنا المتعالية أو الوعي الخالص أو "الأنا الترנסدنتالي" التي تحمل «العالم الخارجي في صورة ماهوية تتصف بالكلية واليقين المطلق، واستنادا إلى هذه الماهيات الكلية يمكن تأسيس العلم الكلي وإقامة أسس الفينومينولوجيا. الكلي الذي يخص الأنا الترנסدنتالي بوصفها موجودة في الواقع حقا»⁴، هذه الأنا التي تسمح لنا في الواقع إدراك اليقين الكلي فـ «كل حالة وعي إنما تقصد شيئا ما وهو يحمل ذاته هو، بوصفه مقصود، الموضوع المقابل، وكل الأنا أفكر** يفعل ذلك بطريقته الخاصة»⁵،

¹ _ يوسف سليم سلامة، المرجع السابق، ص 11 .

² _ بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، ص 195 .

³ _ روبرت هولب، الفينومينولوجيا، ترجمة بمخى طريف الخولي، ضمن موسوعة كوميريدج في النقد الأدبي، ج 08، ص 444 .

⁴ _ علي الحبيب الفريوي، المرجع السابق، ص 23 .

⁵ _ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص 22 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعيات

وباكتشاف هوسرل لهذا الأنا الترنسندنتالي يصل إلى «الإدراك التلقائي للوعي والبنية التكوينية بين الأنا ترنسندنتالي والعالم الخارجي وإن كانت طبيعة الأول ماهوية وطبيعة الثاني مادية. إن العالم ليس سوى موجود في الوعي كموضوع مدرك تختص ماهية الأنا بأن تحيا في أنساق توافق القصديات التي تسري في الأنا أحيانا، والتي هي في أحيان أخرى إمكانية ثابتة يمكن أن تتحقق دائما»¹، وهدف هوسرل الأول هو الانطلاق من نقطة لا نحمل فيها أي تصورات مسبقة، جاهزة، وإزاحة كل المعتقدات والأحكام اليقينية القاطعة، فعندما يعلق الباحث التصورات الجاهزة و« كل الأحكام الزمانية والمكانية على الموضوعات التي يدرسها مكتفيا بالتوجه إليها نفسها، ...، يكون بذلك قد حذف مؤقتا الوجود الخارجي للموضوع، وإحاله إلى موضوع قصدي متجه إليه الوعي»²، وبهذا تكون الفينومينولوجيا «طريقة ذاتية في تناول المشكلات الفلسفية والطريقة الذاتية؛ طريقة تدرس كل الأشياء بوصفها موضوعات للخبرة منظورا إليها في سياق الخبرة فقط، الأمر الذي يسمح لنا بالقول: إنها طريقة لا ميتافيزيقية أو إنها تنبذ الافتراضات الميتافيزيقية المسبقة»³.

ومما تقدم ذكره، نجد أن هدف الفينومينولوجيا الأول هو تقويض الميتافيزيقا الأوروبية، فقد أدرك «هوسرل أن على أوروبا أن تتجه إلى استعادة المغزى الإنساني من العلم وأن تراهن على إثراء المشهد الثقافي. ينبغي التحرر من مفردات الحداثة والنموذج العلمي للمعقولية التي اشتقت من الرياضيات ومن الفيزياء (ديكارت، غاليلي)»⁴. ومن هذا المنطلق كان هوسرل أستاذ دريدا الأول وملهمه الروحي الذي أرشده إلى تقويض الميتافيزيقا الغربية أو النزعة الفلاطونية على حد تعبير هيدجير. هذه النزعة التي أوقد لهيبتها نيتشه وعمل على استمرارها مارتن هيدجر ويتعلق الأمر بـ«التبرؤ الجذري من النزعة

¹ _ علي الحبيب الفريوي، المرجع نفسه، ص 22.

² _ الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هوسرل، ص 16 .

³ _ المرجع نفسه، ص 16 .

⁴ _ المرجع نفسه، ص 24 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

الأفلاطونية، أي من عتاد الفروق الفلسفية التي ورثها الغرب عن أفلاطون وهيمنت على الفكر الأوروبي بكامله»¹، وعرف هيدجر هذه النزعة «الأفلاطونية بما دعاه الميتافيزيقا، وعرف الميتافيزيقا بأنها قدر الغرب»²، واعتبر كل من «ديكارت ونيوتن وكانط وجون ستوارت مل وماركس، سوى مراحل في تاريخ الميتافيزيقا، إذ تظل رؤاهم أفلاطونية الطابع، حتى عندما يظنون بأنفسهم التبرئة من الطابع الأخرى . فهم جميعا يتشبثون، بطريقة أو بأخرى، بالفرق بين الواقع والظهور، أو بين العقلاني واللاعقلاني، ...، كل الميتافيزيقا بما فيها خصمها أي الوضعية، تتحدث لغة أفلاطون»³، وحتى نيتشه الذي بدأ هذه الحملة على الفلسفة الأفلاطونية، اعتبره هيدجر «ميتافيزيقيا، ميتافيزيقي إرادة القوة، فهو الفيلسوف الذي يقبل التعارض الأفلاطوني بين الكينونة والصوررة»⁴. فكان نيتشه الميتافيزيقي الأخير بالنسبة لهيدجر، لكن أغرب ما في الأمر هو أن يكون هيدجر نفسه آخر مخلفات الفلسفة الميتافيزيقية، على زعم دريدا، وعبر عن هذا في كتابه "الكتابة والاختلاف" قائلا: «إنما تُترجم جيدا التباس موقف هايدجر من ميتافيزيقا الحضور والتمركز اللوغوس. إنه متضمن فيه، ويقوم في الوقت بخرقه»⁵، لقد اعتبر دريدا هيدجر ميتافيزيقي الحضور بسبب تفسيره للكينونة والوجود حيث «يصف هيدجر الانتقال التدريجي، فيما يزيد على ألفي عام، من أفلاطونية أفلاطون إلى أفلاطونية نيتشه المعكوسة بأنه نسيان الكينونة، وقد حدث هذا النسيان بالتدريج . وما نسيان الكينونة، بحسب ما يقوله هيدجر، سوى خلط بين الكينونة والكائنات. فيزعم هيدجر أن أفلاطون انزلق من السؤال "عن ما الكينونة؟" إلى السؤال عن "ما خصائص الكائنات العامة"»⁶، وفكرة

1 _ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 277 .

2 _ المرجع نفسه، ص277.

3 _ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 278 .

4 _ المرجع نفسه .

5 _ دريدا ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سينا، دار تابوقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000، ص 124 .

6 _ ريتشارد رورتي، المرجع نفسه، ص 279 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

هذا الانزلاق لفكرة الكينونة يرجع إلى «انزلاق الغرب إلى هاوية القوة النيتشوية وانزلاقه إلى ثقافة توصلت بعقلانية وتضخم تكنولوجيا جعلتها غاية لها، وهي ثقافة قد باتت مهيمنة، هذه الفكرة هي عنصر مكون في فكر هيدجر يتخلى عنها دريدا؛ إذ يرى الاختلاف الأنطولوجي فكرة لا تزال واقعة في قبضة الميتافيزيقا»¹، فمن مبادئ تقويض الميتافيزيقا الغربية رفض اللوغوس والحين إليه يقول دريدا: «ما من اسم فريد، حتى لو كان هذا الاسم هو الوجود. ولا بد لنا من التفكير في ذلك بلا حين، بمنأى عن أسطورة اللغة الأمومية أو الأبوية الخالصة، ذلكم هو موطن البراءة المفقودة الذي يجبا فيه الفكر»²، ورغم أن دريدا يعترف صراحة أن ما وصل إليه من أفكار ونتائج لم يكن ليحدث لولا أفكار هيدجر وتساؤلاته إلا أنه يتبرأ من أنطولوجيته يقول: «ما قد حاولت عمله لم يكن ممكنا لو لا الانفتاح على تساؤلات هيدجر... لكن على الرغم من هذا الشعور بالدين لفكر هيدجر، أو على الأصح بسبب من هذا الدين، أحاول أن أعين في نص هيدجر... العلامات التي تنسب إلى الميتافيزيقا، أو ما قد أطلق عليه بنفسه أنطولوجيا اللاهوت»³. وبذلك يتخلى دريدا عن هيدجر وعن كل ما يربطه بفلسفته وأفكاره فـ «لقد تحول دريدا عن استغراق هيدجر في تتبع الأصول الفلسفية المعتمدة إلى تطوير تقنية يمكن تطبيقها على أي نص تقريبا، قديم أو معاصر، أدبي أو فلسفي. وهذه التقنية هي ما نطلق عليه التفكيك»⁴. ومما سبق ذكره يمكن القول أن هذه التقنية الجديدة فلسفية المولد، غير أنها غير وفية لأصولها وتجد الحجج والمسوغات لغدها بأصولها، فما هي هذه التقنية؟ وكيف عرفها رائدها؟ وما هو السبب الحقيقي وراء ترمدها الدائم؟

¹ _ المرجع نفسه .

² _ المرجع نفسه، ص 280 .

³ _ المرجع نفسه، ص 279.

⁴ _ ريتشارد رورتي، التفكيك، موسوعة كومبريدج، ج8، ص 281 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

❖ ثانيا: ماهية التفكيكية عند دريدا

عندما نرجع إلى صاحب التفكيكية ونحفر حول مفهوم هذا المصطلح نجد أنفسنا في متاهة لا منتهية، فنحن ببساطة لا نجد تعريفا واحدا لدريدا يمكن أن نأخذه كمرجع لتعريف التفكيكية حتى نشك أننا أمام أمر لا يعرف، أو كأن صاحب التفكيكية نفسه لا يستطيع تحديد تفكيكته. لذلك نجد تعاريفه تختلف بين الحين والآخر وترجع بين الظهور والخفاء، بين الحضور والغياب، في عملية إرجاء للمفاهيم وعدم تحديدها، وكأن مفهوم التفكيكية نفسه يخضع لعملية تفكيك طويلة المدى. فنجد تصريحاً قطعياً لدريدا في رسالة إلى صديق ياباني عام 1985، أنه من المستحيل تعريف التفكيك * *Déconstruction* أو تحديده، وأن هذا التعريف أو التحديد يكون منقوص المصادقية على أقل تقدير: «إن أي جملة من نوع التفكيك هو "س" أو التفكيك ليس "س" هي جملة تفتقر، وبشكل قبلي، إلى الملاءمة أو لنصفها بالحد الأدنى فنقول إنها جملة خاطئة»¹، وكأن بالتفكيك هو عبارة عن ممارسة لا تخضع للتعريف أو التحديد، ثم نجد في مقولة أخرى يصف

* _ يرد في المعاجم اللغوية أن مادة «فكك»: ...، يقال فككت الشيء فانفك بمثله الكتاب المختوم. وفككت الشيء: خلصته. وكل مشتبهين فقد فككتهما، وكذلك التفكيك، ابن سيده: فك الشيء يفكه فكا فانفك فصله. وفك الرهم يفكه فكا وافتكه: بمعنى خلصه» (ابن منظور، لسان العرب، مادة فكك)، فالمعنى اللغوي إذن يقوم على الفصل والحل والخلص. وأما مصطلح *Déconstruction* فهو بدوره ينقسم إلى: «1- السابقة *Dé*: وهي سابقة لاتينية تتصدر كثيرا من التراكيب الفرنسية، بمعنى النفي والانتهاى والقطع والتوقيف والتفكيك والنقض. 2- كلمة *Com*: وهي كلمة مرادفة لسوابق أخرى (*Co, Col, Com*) تتصدر كلمات كثيرة، لا تخرج معانيها عن الربط والترابط والمعية (*avec*). 3- كلمة *Struct*: بمعنى البناء. 4- اللاحقة (*ion*): وهي لاحقة مماثلة لللاحقة (*tion*)، تدل كلتاها على شكل من أشكال النشاط والحركة (*action*). وبتركيب هذه المقاطع الجزأة تدل كلمة *Déconstruction* على حركة نقض ترابط البناء» (يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة السانية وهران، 2004/2005، ص 309).

¹ _ جان غراندان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 01، 2007، ص 164.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

التفكيك بأنه «نسبوي، تشكيكي، عدمي، غير عقلائي، عدو التنوير، حبيس اللغة القديمة والبلاغة، يجهل التمييز بين المنطق والبلاغة وبين الفلسفة والأدب»¹. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ما هو التفكيك؟.

لعلنا نجد ضالتنا في مقولات بعض المهتمين بالتفكيكية، فهي عند بول دي مان «النتاج الطبيعي لنمو الثقافة الغربية، نقدا معرفيا لايدولوجيا التمرکز الغربي حول الذات، وسيرا لغور الاستراتيجيات المعرفية التي تؤدي إلى هذا التمرکز وإقصاء الآخر»²، فالتفكيكية ليست فلسفة، ولا منهج حسب تصريحات صاحبها وإنما أصبحت «شعارا يؤشر على توجه معين في العلم السياسي والتاريخ والقانون مثلما الحال في دراسة الأدب»³. هذا التوجه الذي يسعى إلى تقويض المركزية الغربية "المتافيزيقا"، التي تسيطر على الثقافة الغربية المتمركزة « حول العقل والصوت والذات، فهي حضارة لا تحتكم إلا إلى اللوغوس، ولا تصغي إلا إلى المنطوق والشفاهي وتؤثره على المكتوب - ولا معيار لها إلا معيار الذات المطمئنة إلى ذاتها -»⁴. وقد أخذ دريدا على الثقافة الغربية هذه النظرة الذاتية التي تلغي حضور الآخر وتتجاهله، لذلك كان هدف دريدا قلب هذه المسلمات الغربية فـ«التفكيكية لا يمكن أن تنقيد بالحيادية أو تنتقل إليها مباشرة. إذ لا بد أن تطبق من خلال حركة مضاعفة وعلم مضاعف، وكتابة مضاعفة. قلب التضاد الكلاسيكي وإزاحة النظام»⁵، ولا يكون هذا التغير الجذري في النظام الفكري السائد إلا بـ قلقلة أسس هذه الفروع - المعرفية - قلقلة جذرية»⁶، والقضاء على الخلفيات

¹ _ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 39 .

² _ بول دي مان، العمى والبصيرة - مقالات في بلاغة النقد المعاصر، ترجمة سعيد الغانمي، المشروع القومي للترجمة، 2000، ص 03 .

³ _ ريتشارد رورقي، المرجع السابق، ص 275.

⁴ _ بول دي مان، العمى والبصيرة، ص 04 .

⁵ _ وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهرانية إلى التفكيكية، تريوثيل يوسف عزبز، دار المأمون للترجمة والنشر، ط01، 1987، ص 161 .

⁶ _ ريتشارد رورقي، المرجع السابق، ص 275.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

المسبقة والنظرة الأحادية الغربية. وأما حجر الزاوية في هذه الاستراتيجية ويقوم على مبدأ «تفكيك الفكرة - التي وسمها دريدا باسم الوهم السائد في ميتافيزيقا الغرب..»¹.

❖ ثالثا: التفكيكية وعلاقتها باللغة والأدب عند دريدا

بعد الحفر في الخلفيات الفلسفية والفكرية للتفكيكية يحق لنا أن نتساءل: ما هي العلاقة التي تربط الأدب بالتفكيكية؟ ولماذا كان اهتمام دريدا منصباً على الأعمال الأدبية واللغوية؟

يقول دريدا شارحا عملية التفكيك: «إن عملية التفكيك لها في ذاتها بعد شعري، والتحليل التفكيكي الذي يتناول العمل الأدبي هو بويطيقا بشكل ما، أو على الأقل فيه ملمح من قوة البويطيقا. لكن المفكك يعمل على تلك النصوص التي تمتاز باحتوائها على طاقة فلسفية ربما تكون أكبر وأعمق من الخطاب الأكاديمي»²، فالتفكيكية تعمل على النصوص الأدبية العظيمة؛ التي تحتوي على طاقة فلسفية ورؤية فكرية، فهذه النصوص وحدها «قادرة على تقديم الحقيقة - كما يراها التفكيك - متعددة ومرجأة، وعلى أي حال ليست مطلقة أو أحادية»³؛ لأن النصوص الخالدة تستقبل عادة لدى المتلقي مع خلفية مسبقة وحكم نهائي على قيمتها الفنية والجمالية والفكرية، وهذا الحكم النهائي يجب تقويضه، فليس هناك حكم نهائي ولا معنى نهائي فالنص في حقيقته - في نظر دريدا - «آلة تنتج سلسلة من الإحالات اللامتناهية . فهذا النص، باعتبار ماهيته المتعالية، يشكو أو ينتشي من غياب ذات الكتابة ومن غياب الشيء المحال عليه أو المرجع»⁴، ولكن كيف نقوم بتفكيك هذه النصوص؟

¹ _ كريستوف نوريس، التفكيكية النظرية والممارسة، تر صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989، ص 57.

² _ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 26.

³ _ المرجع نفسه.

⁴ _ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2004، ص 124.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعييات

التفكيكية استراتيجية تقوم على «ذاتية القارئ، ويرمى إلى الكشف عن معنى مخالفٍ للمعنى الشائع للنص: معنى "مُهرب" في غضون النص وهوامشه -بالنسبة للمفكك- يحتاج إلى حدة البصر لظاهر النص ومكر الضبط ؛ وهو معنى كامن في متن النص -بالنسبة للمؤول- يحتاج إلى البصيرة والحدس والتعاطف مع النص»¹، ولا يمكن القيام بهذا إلا باستعمال اللغة وعزل الذات المبدعة عن نصها - موت المؤلف عند بارث - ف«عندما يفصل النص عن قصدية الذات التي أنتجته فلن يكون من واجب القراء ولا في مقدورهم التقييد بمقتضيات هذه القصدية الغائبة - والخالصة وفق هذا التصور أن اللغة تدرج ضمن لعبة متنوعة للدوال - كما أن النص لا يحتوي على أي مدلول منفرد ومطلق، ولا وجود لأي مدلول متعال، ولا يرتبط الدال بشكل مباشر بمدلول يعمل النص على تأجيله وإرجائه باستمرار، فكل دال يرتبط بدال آخر بحيث أن لا شيء هناك سوى السلسلة الدالة المحكومة بمبدأ اللامتناهي»²، فلا وجود لمعنى نهائي ولا محدود ولا مسبق ولا متعال، لذلك كانت غاية دريدا الأساسية « تأسيس ممارسة (فلسفية أكثر منها نقدية) تتحدى تلك النصوص التي تبدو وكأنها مرتبطة بمدلول محدد ونهائي وصریح، بل يطمح إلى تحدي ميتافيزيقا الحضور الوثيقة الصلة بمفهوم التأويل القائم على وجود مدلول نهائي، إن ما يسعى إلى البرهنة عليه هو السلطة التي تمتلكها اللغة المنجلية في قدرتها على أن تقول أكثر مما تدل عليه ألفاظها مباشرة»³، بذلك تدخلنا التفكيكية في متاهة اللامتناهي قصرا، وتكون هذه التفكيكية كما شرحها دريدا في مقولة من مقولاته بأما «ما يحدث وأيضا هو إمكانية المستحيل»⁴؛ الذي يتحقق عن طريق اللغة، لذلك نجد في أغرب تعريف له لـ التفكيكية في كتابه "مذكرات لأجل بول دي مان Mémoires pour Paul de Man" نشره عام 1988 يقول فيه: «إذا ما كان لي أن أتجشم بعض

¹ _ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 18 .

² _ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 125 .

³ _ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 124 .

⁴ _ جاك دريدا، في علم الكتابة، ص 46 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

المخاطر، وليحفظني الإله منها، فإن هناك تعريفا واحدا للتفكيك: مقتضب، يتميز بالإيجاز، اقتصادي وكأنه أمر من الأوامر ودون تحذلق هو: إنه أكثر من لغة plus d'une langue¹، ففي هذا التعريف يفاجئ دريدا جمهور قرائه بأن التفكيكية هي أكثر من لغة، بذلك تقترن التفكيكية باللغة. ولكن ما معنى أكثر من لغة؟ وقبل ذلك كيف ينظر دريدا إلى اللغة؟

❖ رابعا: ثنائية (اللغة/الهوية) في فكر دريدا:

عودنا دريدا بالابتعاد عن تقديم التعاريف القطعية والمحددة، وهذا ما نجده في تقديمه للغة الذي اعتبرها بيته، فهي تسكنه، ولكنها ليست لغته فهو أحادي اللغة، لا يمتلك إلا لغة واحدة ومع هذا هي ليست لغته يقول: «نعم، أنا لا أملك إلا لغة واحدة، ومع ذلك فهي ليست لغتي»²، ولكن يصف هذه الأحادية اللغوية بأنها «كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسها، بل وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى»³. بل يصفها باللغة الوحيدة التي نذر نفسه لها ولكنها تبقى غريبة عنه وغريب عنها يقول «على أن هذه اللغة، اللغة الوحيدة التي نذرت نفسي للتحديث بها، من المهد إلى اللحد، هي كما ترى ليست لغتي، والحق أنها لم تكن كذلك مطلقا»⁴. فكيف تكون اللغة التي نتحدث بها ونتقنها ولا نملك غيرها ليست لغتنا؟

في حقيقة الأمر عندما يعتبر دريدا نفسه لا يمتلك أية لغة فهذا يعني أن ما تمثله هذه اللغة بكل حملتها الثقافية ليست له ولا هو منها فـ «اللغة هي الهوية الكبرى التي تنضوي تحتها تلك الهويات الفرعية الأخرى من دين أو عشيرة أو جماعة ما، فتحديد الهوية يعزز بواسطة اسم اللغة التي تفي بالوظيفة الرمزية للتمثيل على المستويين الاجتماعي والفردية، إذ لا يمثل الانتساب إلى العشيرة أو الجماعة فقط وإنما يمثل كل

¹ _ جان غراندان، المنعرج الهرمونيوطيقي للفينومينولوجيا، ص 165 .

² _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيل، منشورات الاختلاف، ط 01، 2008، ص 24 .

³ _ المرجع نفسه، ص 23 .

⁴ _ المرجع نفسه، ص 24 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعيات

أنواع الولاء : إلى الدين وإلى الزعيم السياسي وإلى الايديولوجيا¹، وتصريح دريدا بعدم انتمائه للغة التي يتكلم ويكتب بها ويتقنها جيدا هو في حقيقته اعتراف صريح بعدم انتمائه لثقافة هذه اللغة، ولهويتها، ولجذورها، وبذلك يحاول معالجة قضية ارتباط اللغة بالذات، بالهوية، بالمواطنة، الفرنسية، اليهودية، ..فـ «هل يمكن للغة أن تكون أساسا للهوية، ومن ثمة أساسا للمواطنة؟»².

تعتبر لطيفة النجار «أن العلاقة بين اللغة والهوية علاقة وجود فكلنا يعرف - كما يؤكد المختصون - أن اللغة أسلوب حياة، وهي جزء أساسي من كينونتنا، ولها أثر كبير في الفكر والشعور، فهي لا تشكل معالم هويتنا فقط، ولكنها تحدد شروط القبول أو عدم القبول، ومعايير الانتماء أو عدم الانتماء»³، لذلك فإن المشكلة اللغوية عند دريدا مردها إلى مشكلة الانتماء والهوية، فهو لا يستطيع إغفال حقيقة كونه يهودي الديانة، جزائري المولد والنشأة، وفرنسي الجنسية واللغة، وحتى جنسيته الفرنسية لم تسمح له بأن يكون مواطنا فرنسيا عاديا بسبب الطائفة التي ينتمي إليها يقول: «كنت يافعا في تلك المرحلة، ولم يكن في مقدوري أن أفهم بشكل جيد - والواقع أنني ما زلت كذلك - ما معنى المواطنة، وما معنى فقدان هذه المواطنة؟ مع ذلك، فأنا على يقين من أن هذا المنع أو الاستبعاد - وكمثال على ذلك المنع من دخول المدارس المخصصة للتلاميذ الفرنسيين حصرا - يمكن أن تكون له علاقة بذلك الاضطراب الملاحظ في مستوى الهوية، ... كما أنني على يقين أيضا، من أن منعا أو استبعادا من هذا القبيل يمكن أن يترك أثرا في عملية انتماء اللغة أو عدم انتمائها، في عملية الانتساب إلى اللغة، وفي الميل إلى ما ندعوه بكل بساطة: اللغة»⁴. وبهذا فقد دريدا هويته اليهودية، والعربية، ومواطنته الفرنسية يقول: «لقد فصلت في البداية عن اللغة والثقافة العربية أو البربرية ...لقد فصلت أيضا

¹ _ أحمد عفيفي، اللغة المؤسسة الحقيقي للهوية والانتماء، ص 1. مقال على شبكة الأنترنيت،

<http://www.alarabiah.org/uptoods/pdf>.

² _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 10 .

³ _ أحمد عفيفي، المرجع السابق، 02 .

⁴ _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 44 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

عن اللغة وعن الثقافة الفرنسية، .. وأخيرا وربما أولا، فقد قطعت عن الذاكرة اليهودية ذاتها، وعن ذلك التاريخ وتلك اللغة التي كان يفترض أن يكونا تاريخها ولغتها في آن واحد¹، مما أحدث لديه اضطرابا في الهوية فلا هو يهودي يتقن لغتهم، ولا هو عربي يتقن العربية، وحتى اللغة التي يتقنها ويتكلم بها ويسكنها رفضته ورفضت انتسابه إليها، لذلك فهو لا يمتلك إلا لغة واحدة ولكنها ترفضه هذه اللغة التي «فرضت عليه من الخارج، إلا هذا الخارج تحول إلى داخل، بما أن الأمر يتعلق باللغة الوحيدة التي يعرفها ويستطيع الحديث والكتابة بها»². ومن هنا كانت المعاناة اللغوية «التي صقلت التجربة الأساسية لجاك دريدا ولفكره التفكيكي»³، فهي معاناة لـ "الهوية" المفككة بين ثلاث شعب متناقضة، فـ الهوية عند دريدا «ليست شيئا معطى، سليما كان أم مصابا، لأن ما يبقى هو مسار المكابدة اللامنتهي والغريب لإثبات الهوية (أو لتحقيق الذات)»⁴. وفي عادة الأمر اللغة هي التي تسمح لنا بتحقيق الذات وإثباتها، لكن هذا ما يفترقه دريدا الذي تفكك عنده مفهوم اللغة فأدى ذلك إلى تفكيك المبادئ والأسس الثابتة، اللغة، المعنى، الدال، ... فلا وجود لمثل هذه الأسس والثوابت. وعدم امتلاك لغة أمة يؤدي إلى عدم امتلاك أهم ما يمثل عناصر الهوية وثوابتها، وبساطة لا نستطيع امتلاك اللغة يعني لا وجود لـ «ملكية طبيعية خاصة باللغة، وإن وجدت فهي لن تكون إلا مجالا خصبا لحب التملك والغيرة، بل إنها ما هي إلا هذه الغيرة، وقد أفلتت من عقالها، فهي تأخذ بثأرها وفق مقتضيات القانون، هذا القانون الذي يرى أن اللغة مجنونة، مجنونة بذاتها، مجنونة وموثوقة يتوجب عليها أن تصمت»⁵، فلا أحد يستطيع أن يدعي امتلاك أكثر من لغة، وهذه اللغة الأحادية في حقيقة الأمر ليست لغتنا الخاصة وإنما هي لغة الأخر .

¹ _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص ص 102.103 .

² _ الزواوي بغوره، المرجع السابق، ص 207 .

³ _ جان غراندان، المنعرج الهرمونيوطيقي للفينومينولوجيا، ص 170 .

⁴ _ المرجع نفسه، ص 170 .

⁵ _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 53 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

إن «التجربة المتعلقة بأحادية الآخر اللغوية هي في الواقع تجربة شاملة بما أنها تترجم الاغتراب الأساس للمسألة اللغوية عند الإنسان»¹؛ لأن هذا الشعور بالاغتراب لا ينحصر في اللغة وحسب وإنما يمتد إلى الثقافة بسبب البحث عن اللغة الأم، يقول دريدا: «هذه هي الثقافة التي أوصلتني إلى تقدير مدى النكبات التي يمكن أن يتجرعها البشر جراء البحث عن لغة أم (أصلية)، ...، لذا فقد حولت وجهة ثقافتي نحو الثقافة السياسية ولغتي الأم (الأصلية) هي ما يقوله الآخرون، ما يتحدثون به»². هذا الاصطلاح على اللغة الأم هو في حقيقة الأمر اصطلاح على لغة «صماء، بكماء لا تقوى على تقديم أي جواب»³، ووجود الآخر فقط يمنحني الهوية لذلك يجب إرجاء مفهوم اللغة الأم والبحث عن الآخر (ت-لاف) أي البحث عن التعددية اللغوية، اللغة اللامائية، ففكرة العلاقة لا تتحقق إلا بوجود هذا الآخر (ت-لاف) وبذلك يمكن تحقيق وجود هوية .

❖ الخاتمة:

نستخلص من خلال ما سبق ذكره أن التفكيكية استراتيجية تسعى إلى تفويض النص وكل فكر نهائي الدلالة والمعنى، فلا وجود لمعنى محدود أو لغة نهائية أو ثقافة واحدة. ومن هذا المنطلق لعب التفكيك على خلخلة المبادئ الثابتة والنهائية، واللغة هي عنوان الثقافة، والقالب التي تتجسد فيه الثقافة التي تعبر عن أهم المرتكزات التي يبني عليها الفرد هويته، هذه الهوية التي أراد دريدا تشيبتها في مقولات المركزية الغربية التي كان هدفها الأساسي إبعاد الذات وإقصائها . وعبر هذه المقولات يتصالح دريدا مع ذاته، مع لغته الوحيدة، مع هويته المتمزق.

لقد استطاع دريدا عبر استراتيجيته التفكيكية من خلخلة الأسئلة الثابتة والمركزية في الفكر البشري واستبدالها بأخرى متأرجحة بين الوهم والحقيقة، وبين الكائن والممكن

¹ _ جان غراندان، المرجع نفسه، ص 174.

² _ جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ص 69 .

³ _ المرجع نفسه، ص 69 .

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعييات

وبذلك فتح مجال البحث والنقاش في اللاممكن واللافتائي. إن محاولة تفكيك مقولة اللغة الأم والمرجع هو في حد ذاته تفكيك لمبدأ الهوية وأهم ركن فيها. فمحاولة تفكيك هويته وتفكيك لغته عبر رفضه لها ورفضها له هي في الحقيقة بداية لتفكيك الهوية البشرية والتماهي في كل ما هو موجود في قالب ظاهره التعدد والتعايش مع الآخر وباطنه تفكيك الذات والإنسان والفكر بصفة عامة.

قائمة المصادر والمراجع :

1. الزواوي بغوره، الفلسفة واللغة "نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة"، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط 01، 2005.
2. ريتشارد رورتي، التفكيك، تر حسام نايل، ضمن موسوعة كومبريدج، ج8، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 01، 2006.
3. جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط02، 2008.
4. بيتر كونزمان وآخرون، أطلس الفلسفة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط 02، 2007.
5. علي الحبيب الفريوي، مارتن هيدجر "الفن والحقيقة " أو الالهاء الفينومينولوجي للميتافيزيقا، دار الفارابي، بيروت، ط01، 2008.
6. يوسف سليم سلامة، الفينومينولوجيا المنطق عند إدمون هسرل، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2007.
7. روبرت هولب، الفينومينولوجيا، ترجمة يمني طريف الخولي، ضمن موسوعة كومبريدج في النقد الأدبي، ج 08.
8. جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، دار تابوقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط02، 2000.
9. جاك دريدا، أحادية الآخر اللغوية، ترجمة عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، ط 01، 2008.

اللغة - الهوية: ثنائية الحضور والغياب في فلسفة دريدا التفكيكية ----- د. نعيمة بولكعبيات

10. جان غراندان، المعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة عمر مهيبيل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 01، 2007.
11. يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، مخطوط أطروحة دكتوراه، جامعة السانية وهران، 2004 / 2005.
12. بول دي مان، العمى والبصيرة - مقالات في بلاغة النقد المعاصر، ترجمة سعيد الغانمي، المشروع القومي للترجمة، 2000.
13. وليم راي، المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، تريوثيل يوسف عزيز، دار المأمون للترجمة والنشر، ط1، 01، 1987 .
14. كريستوف نوريس، التفكيكية النظرية والممارسة، تر صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989 .
15. أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 02، 2004 .